ثقافة السلم والوئام في مجتمع ايموهاغ

بقلم الأستاذ : محمد حمزة[1]

التناغم والتكيف

لقد تمكن الإنسان الأمازيغي على العموم من ترويض البيئة التي عاش فيها إلى حد الإبداع وحيث أصبحت له فلسفته في التناغم التام مع متطلبات هذه البيئة التي يجمع الكثيرون على قساوتها وصعوبة الحياة فيها كما تبدو لمن لا يعرفها، والعجيب في ذلك أنّ هذا الإنسان .... تمكن أن يكون عكس ما تبدو عليه بيئته، فهو هادئ ورقيق وصبور، ثابت ونبيل يعيش حسب ما تمليه عليه دقات قلب هذه البيئة من فصول يتكيف معها حسب ما تمليه عليه فلسفة احترام الأرض التي يعيش عليها... أنا لن أنسى وصايا أمي التي كانت تعلمني كيف أحترم البيئة التي أعيش فيها بأقوال بسيطة ولكنها ذات مدلول عظيم.

لا تضرب الأرض بدون سبب لأن هذا يعتبر تبودار (عقوق) لأنها تضغطك عندما ستدخل في قبرك، وهذا طبعا درس في احترام البيئة الجامدة نحن في حاجة إليه اليوم، كما علمتني أيضا احترام الحيوانات حيث كانت تقول: إن من يطلق صراح عصفور في الدنيا فإنه سيطلق سراحه في الآخرة، وهذا طبعا أرقى طريقة لإيصال أهمية الحيوان إلى قلب طفل صغير لا يعرف معنى الإيكولوجية. كما نجد أيضا في التراث الشعبي أن بعض الحيوانات ما هي إلا بشرة خير مثل (مولا مولا) التي ترمز للأخبار والسلام وكانت هناك أيضا قوانين تحمي الوديان والأشجار من الاستغلال المفرط وقطع الأشجار الخضراء أو جذور النبات. إن البيئة التي يعيش فيها الإنسان التارقي جعلته يكتسب فلسفته وفهم خاص لكل ما يحيط به من إنسان وحيوان ونبات وأشياء ومعادن لها أهميتها في ديناميكية الحياة والتكامل بينه وبين المحيط الذي يعيش فيه وهذا طبعا جعل الإنسان يكتسب مفهوما أرقى جعله يفهم أنه عنصر فعال ومهم في التوازن الذي يربطه بأخيه الإنسان، كلمة أجنبي مثلا لا مقابل لها في اللغة التارقية حيث نستعمل كلمة الضيف (Amagar) فهي ذات مدلول عميق بحكم البيئة التي يسكنها هذا الإنسان حيث يستفيد كل إنسان من ميثاق أهل الصحراء وهو أنه قبل كل شيء إنسان أي ضيف ويجب معاملته من هذا المنطلق (الضيافة وحسن المعاملة) ثم بعد ذلك يسأل عن ماهيته وانتمائه في قبيلة الإنسان حيث أن هناك مثلا تارقيا يقول أن للماء والعشب للإنسان أم الأرض فهي لله (أكال نمسينغ).

1 – حمزة محمد أستاذ اللغة الأمازيغية.

نظرت الأخر على الآخر:

إذا ما رجعنا قليلا إلى ما قيل على هذا الشعب، نجد أن كثيرا من الرحالة والكتاب الغربيين لم يتمكنوا من فهم العلاقات المعقدة التي كانت تسير هذا المجتمع الذي كان في الحقيقة جد منظم وكانت له قوانين راقية تسيره في الحرب وفي السلم ولكن كان من الصعب فهمها لمن هو خارج هذا المجتمع لم يفرقوا بين السرقة التي كانت قليلة جدا وحروب الغنائم (الغزوات) ومن أمثال هؤلاء Hanteu 1864 الذي أعطى صورة درامية عن هذا المجتمع، لا يمكن لمن يعرف تعلق هذا الشعب بالسمو والنبل وقانون الشرف (Code d'honneur) أن يصدقها خاصة ونحن نعلم أنه كان من لا يحترم هذا القانون يتعرض للطرد من القبيلة في الكثير من الأحيان، لم يتمكن (Hanteu) من التمييز بين السرقة والغزوات وحروب الشرف أو الغنائم ... فتغلبت عليه عقلية من يظن أنه المتحضر الوحيد وغيره بدائي ومتوحش، كما فعلوا مع حضارات أمريكا اللاتينية وهذا طبعا لتبرير استعمار ونهبها فيما بعد.

القيم والأخلاق:

ولكي نفهم حياة هذا المجتمع بين الحرب والسلم يجب أن نحاول فهم كيف كان يعرف قيمته الأخلاقية والاجتماعية.

1- اَللّو:

وهي في البداية قيمة شخصية وتعني نبل الطباع ورقي الروح وهو ما ينتظر من كل إنسان نبيل يقول إنه ينتمي إلى هذا المجتمع، وكان كل من يصل إلى هذه الدرجة من نبل الأخلاق ينال التقدير حيث كان الخادم الذي يثبت جدارته في المجتمع ينالها، بإعطائه حريته ويسمح له عندئذ بكسب الرموز التي تدل على ذلك حيث يعطي لرجل شاش من إشان كرمز للتوجيه لأنه وصل بفضل مجهوده إلى تلك الدرجة السامية التي يجدر على كل إنسان يقول أنه ينتمي إلى هذا المجتمع أن يصل إليها أما المرأة فيعطى لها لحاف من إشان وحريتها.

وكان الأجنبي الذي يريد الانضمام إلى هذا المجتمع تفرض عليه نفس القوانين (Code d'honneur) ومن لا يطبق هذه القوانين والأعراف يطلق عليه اسم (أنفلس) حيث يطرد في بعض الأحيان ويترك يهيم لوحده وتتجلى قدرة هذا المجتمع في قوته في استطاعته احتواء الآخر الذي يأتي إليه فيجعل منه فردا يحترم تلك القوانين ويتقمصها وهذا ما حدث لكثير من الأفراد الذين أتوا لهذا المنطقة في الماضي وتزوجوا وذابوا وأصبحوا يشكلون جسما واحدا داخله من حيث القيم واللغة والتقاليد، ونستنتج أن كل ثقافة قوية تتقبل الآخر، وتحتضنه، بينما الثقافات الضعيفة تلفظ وتبعد الآخر لأنها عاجزة وليس لها البديل الذي يجذب الآخر إليها بل في بعض الأحيان يهجرها أبناؤها حتى.

2- أشك:

وهناك اشك وهو من أشهر وأعظم القيم عند التارقي والكل مطالب به كشخص أو مجموعة أو قبيلة أو تاوست وتوماست كلها، وهو قيمة مثالية تحوي كل الأخلاق والتصرفات الحسنة التي يجب الحفاظ عليها مهما كان الثمن.

وعدم احترام هذه القيم بين شخص وآخر أو مجموعة وأخرى أو قبيلة وأخرى وحتى بلد وآخر (Confédération) قد يؤدي إلى تحول ذلك إلى (egha) وهذه الوضعية التي يحاف منها الجميع حيث أنها قد تتطور وتصل إلى نفي الشخص أو القبيلة كلها، ويعتبر (egha) من أخطر الوضعيات بالنسبة للتماسك الاجتماعي والتناغم في العلاقات بين الأشخاص والقبائل حيث أنه قد يتحول في كثير من الأحوال إلى ثأر فيسيل الدم.

3- أغا (egha):

عندما تتحول وضعية أغا (egha) إلى وضعية ردع أو رد الضربة (Contre coup) فإن هذا يشكل خطر قد يؤدي إلى اندلاع حرب وهجوم شرف (Pillage d'honneur) أو ردع مثل ما حصل في 1874 عندما استنجدت نساء من إمنان بالهقار ضد كل أجر فذهب أهيت أغل قائد جيش الهقار لنجدتهن من كل أجر وهذا طبعا داخل في التحالفات والحفاظ أيضا على قانون الشرف المتفق عليه.

شروط احترام قانون الشرف:

من شروط احترام قانون الشرف المتفق عليه بين رجال النبلاء (Imaghen) هو عدم المساس بمن لا يشارك في الحرب (Contre coup) مثل رجال الدين الحدادين (إنضن) الضيوف النساء، الأشياء الأساسية في حياة الإنسان كالحبوب أو الغذاء الموجود في الكهوف (يعتبر سرقة) الناقة الحلوب، الغنم القليلة، حمار لحمل الماء وحلى ولباس النساء. ومن أجمل ما في هذا القانون من فلسفة أنه يجب ترك بذرة لكل شيء لكي يتمكن العدو اليوم وأخ الأمس من النهوض مرة أخرى وخاصة من الناحية المادية (استمرار الحياة).

التعامل مع المساجين:

عندما يكون هناك مساجين في الحرب فإنه يقام حفل يمجد طبعا المنتصر ولكن في نفس الوقت يظهر لهم أن المنتصر ذو نبل وشرف ولا ينسى أن مغلوب اليوم يمكن أن يكون منتصر الغد وأخ في المصير والأرض وقانون الشرف العظيم وعندما يتم إطلاق سراحهم يعطى لهم لباس ومركوب ويرافقونهم حتى حدود قبيلتهم أما الخدم الدين يتم أسرهم ثم يتبين أنهم ليسوا كذلك فيجب إطلاق سراحهم فورا بموجب قانون الشرف المتفق عليه بين (امازغن) ولنا كثيرٌ من الحالات والقصص المعروفة.

الصلح أكْنِي (eknni):

عندما يتغلب منطق السم والمنفعة المتبادلة والمصير الواحد واحترام الأعراف وقوانين النبل والشرف يسود السلم لا محالة، وذلك هو ما قام به أهل الهقار بعد الصراع الذي حدث بين القبيلتين الأختين (كلاغلا) و(كل تايتوق) والذي تسبب في قيام معركة أفتسن في نهاية القرن الثامن عشر وتم الصلح فيها عبر التحالف المبني على إعادة توطيد أواصر الدم والنسب بين القبيلتين بتزويج أبناء أمنوكال (كلاغلا) من نساء (كيل تايتوق) بعد الصراع الذي تسبب في تقسيم وحدة الهقار وحتى في هذه الحالة فإن الحل الذي يلجأ إليه إموهاغ ليستتب الود والأمان بين أفراد المجتمع يؤدي إلى ولادة قيمة أخرى سامية ومُفيدة هي (تمانهيق TAMANHIQ) والتي أستطيع أن أقول أنها تجسيد لتوازن القوى والاحترام المتبادل دون إخضاع طرف إلى آخر بأي حال من الأحوال.

الخلاصة:

أنا أرى أن مشكلتنا اليوم مع السلم والمصالحة مشكلة عميقة جدا ومن الخطأ أن نظن أنها وليدة الساعة بل أعمق من ذلك بسبب ما تعرضت له الجزائر من استعمار دام طويلا كاد يتسبب في فقدان هوية الإنسان الجزائري وارتباطه بثقافته بكل ما فيها من تنوعاتها ولكي نفهم هذا أرجع قليلا إلى المجتمع التارقي وسر ارتباط هذا المجتمع ببيئته حيث يعتبر الطوارق من أقل شعوب العالم حبا للهجرة والسر هنا طبعا لا يتعلق بالجانب المادي كما قد يتساءل البعض بل فقط لأن التارقي تربطه بيئته أشياء فقدها الكثيرون، فالتارقي الذي كان ينتقل من البادية إلى المدينة كان أول ما يشتريه في عصر التكنولوجيا كآلة خارقة مذياع (Poste cassette).

أتعلمون لماذا ؟

طبعا ليس لكي يستمع إلى موسيقى (Pope) لأن هذا لا يهمه بل لكي يستمع إلى دقات قلب هذه الثقافة الراقية من إمزاد وتيندي وإسوات وأشعار تمجد البيئة والجبل والصحراء وأغاني تجعل من الأرض امرأة يجب الحفاظ عليها والاعتناء بها فأنا عندما رأيت إخواني يموتون في البحر تأسفت ولم اصدق أن مشكلة مادية بل هناك شيء أعمق من ذلك هو فقدان بعض من شبابنا لما يربطه بثقافته فعاش غريبا عنها ومات غريبا نقول بالأمازيغية (باس اسان الواتن نكال نيت) فلم يعد يفهم دقات قلب ثقافته وأرضه فتركها باحثا عنها.

وفي الأخير أقول شكرا لأمي التي كانت تقول لي احترس يا بني خلف الجبل ينتهي العالم، وعندما كبرت عرفت أن وراء الجبل يبدأ العالم ففهمت مقصود أمي رحمها الله.